رويّ الشين

أبو الغمرات

وقال يمدح أبا العشائر علي بن الحسين بن حمدان ويذكر إيقاعه بأصحاب باقيس ومسيره من دمشق:

[الوافر]

مَـبِـيـتِـي مِـنْ دِمَـشْـقَ عـلـى فِـرَاشِ
حَـشَـاهُ لِـي بِـحَـرٍّ حَـشَـايَ حَـاشِ (١)
لَـقَـى لَـيـلٍ كَـعَـيْـنِ الـظَّـبْـيِ لَـوْنـاً
وَهَـمٍّ كـالـحُـمَـيَّـا فـي الـمُـشَـاشِ (٢)
وَشَـوْقٍ كـالـتَّـوَقُّـدِ فـي فُـؤَادٍ
كَـجَـمْـرٍ فـي جَـوَانِـحَ كَـالـمُـحَـاشِ (٣)
سَـقَـى الـدَّمُ كُـلَّ نَـصْـلٍ غَـيْـرِ نَـابٍ
وَرَوَّى كُـلَّ رُمْـحٍ غَـيْـرِ رَاشِ (٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥، ١٥٧. المبيت: المأوى ليلاً. حشاه: ملؤه. الحشا: ما اضطمت عليه ضلوع الإنسان. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية مصوّراً حالته النفسية، فقد ترك دمشق، وهو يُعاني من حرارة الحبّ الذي انعكس على فراشه فلم يستطع النوم وبقي ساهراً.

(٢) اللقى: الشيء الملقى. الحميا: سورة الخمر. المشاش: رؤوس العظام الرخوة. إنه ليل دامس، ظلامه قاتم، والهمّ ينهب ما في رأسه من اطمئنان وهدوء بال ويسري كما تسري الحمّى في الجسد فيبدو كالمخمور يُعاني الضياع فلا يُحسن التفكير.

(٣) المحاش: ما أحرقته النار. إنه شوق إلى الحبيب لاهب متوقّد يُحرق ما في قلبه لشدّة حبّه كالجمر يأكل جوانحه نار حارقة.

(٤) ينتقل الشاعر إلى مدح الممدوح ممهداً للحديث عن السلاح وفاعليّته، ويدعو بالسقيا =

فَـإنَّ الْـفَـارِسَ الـمَـنْـعُـوتَ خَـفَّـتْ
لِـمُـنْـصُـلِـهِ الـفَـوَارِسُ كـالـرِّيَـاشِ (١)
فَـقَـدْ أَضْـحَـى أَبَـا الْـغَـمَـرَاتِ يُـكْـنَـى
كَـأَنَّ أَبَـا الْـعَـشَـائِـرِ غَـيْـرُ فَـاشِ (٢)
وَقَـدْ نُـسِـيَ ٱلْـحُـسَـيْـنُ بِـمَـا يُـسَـمَّـى
رَدَى الأَبْـطَـالِ أَوْ غَـيْـثَ الْـعِـطَـاشِ (٣)
لَـقُـوهُ حَـاسِـراً فِـي دِرْعِ ضَـرْبٍ
دَقِـيـقِ الـنَّـسْـجِ مُـلْـتَـهِـبِ الْـحَـوَاشِـي (٤)
كَـأَنَّ عـلـى الـجَـمَـاجِـمِ مِـنْـهُ نَـاراً
وَأَيْـدِي الْـقَـوْمِ أَجْـنِـحَـةُ الْـفَـرَاشِ (٥)

= لكلّ نصل لا تخطئ ضرباته ولا يكل زند حامله بل يمعن قتلاً وفتكاً بأعدائه. وكذلك يدعو لكلّ من يحمل رمحاً ألّا تفتر همّته في مهمته القتالية.

(١) يمدح الشاعر أبا العشائر المجمع على شجاعته من سائر الناس وهم يتناقلون الأحاديث في أسمارهم ومنتدياتهم بمواصفاته المحبّبة إلى نفوسهم، لقد فاجأ الأمير أنطاكية فأنزل بالروم الخسف والهوان، فإذا برؤوسهم تتطاير عن أجسادهم بسيفه الذي لا يكلّ بيده ضرباً وقتلاً.

(٢) ولكثرة جولات وصولات ممدوحه وحروبه، فقد أصبح يُكنّى بأبي الغمرات. يتناقل الناس بتلك الكنية بفرح واعتزاز حتى باتت تلك الكنية أغنية على كلّ لسان مما أنساهم كنيته الأصلية أبا العشائر.

(٣) الردى: الموت. ومع مرور الزمن وتوالي أعمال الحسين العظيمة، وهو مردي الأعداء في ميادين القتال، فإذا بهم يسمّونه بردى الأبطال لشجاعته، وقد يطلقون عليه اسم غيث العطاش لكرمه وجوده الذي يشمل سائر رعيّته.

(٤) و (٥) الحاسر: من لا يتدرع بدرع. إنه لقاء مفاجئ فلم يُسمح له بارتدائه درعه ليحمي نفسه، ولكن درعاً آخر حلّ محله، إنه يُحامي عن نفسه بشجاعته؛ ذلك أن الأعداء يدفعهم عدم ارتدائه درعه إلى الاحتشاد بكثرة علّهم يقتلونه، فإذا بذلك الجمع الغفير يكون له بمثابة الدرع فالكل يودّون الخلاص إليه ليفتخر قاتله بأنه أنجز عملاً بطولياً في بني قومه، فإذا بضرباته وضرباتهم لبعضهم يقضي عليهم ويخرج من بينهم سالماً؛ =

كَـــأَنَّ جَـــوَارِيَ الـــمُـــهَـــجَـــاتِ مَـــاءٌ
يُـعَـاوِدُهَـا الـمُـهَـنَّـدُ مِـنْ عُـطَـاشِ[١]
فَـــوَلَّـــوْا بَـــيْـــنَ ذِي رُوْحٍ مُـــفَـــاتٍ
وَذِي رَمَـــقٍ وَذِي عَـــقْـــلٍ مُـــطَـــاشِ[٢]
وَمُـنْـعَـفِـرٍ لِـنَـصْـلِ الـسَّـيْـفِ فِـيـهِ
تَـوَارِي الـضَّـبِّ خَـافَ مِـنِ احْـتِـرَاشِ[٣]
يُـدَمِّـي بَـعْـضُ أَيْـدِي الْـخَـيْـلِ بَـعْـضاً
وَمَـا بِـعُـجَـايَـةٍ أَثَـرُ ٱرْتِـهَـاشِ[٤]
وَرَائِـعُـهَـا وَحِـيـدٌ لَـمْ يَـرُعْـهُ
تَـبَـاعُـدُ جَـيْـشِـهِ والـمُـسْـتَـجَـاشِ[٥]

= وسيفه نار تلتهب فتطير رؤوسهم وأيديهم تتطاير عن أجسادهم كأنها أجنحة فراش تحوم على النار حيث تلاقي حتفها.

(١) المهجات، الواحدة مهجة: دماء القلوب. يعاودها: يرجع إليها مرّة بعد أخرى. الماء سرّ الحياة للبشر وسيف الممدوح دائم العطش لسفك دماء الأعداء، وهو لا يني يُعاود الكرّات المرة تلو الأخرى لاستمرار عطشه الذي لا يرويه إلّا المزيد من إزهاق أرواحهم.

(٢) المفات: المتروك. الرمق: بقية روح المنازع لحظة الموت. المطاش: من تولّه وذهب عقله. يصف الشاعر حالة أعداء الممدوح؛ فبعضهم هلك وفارقته بقيّة أنفاسه، وبعضهم الآخر استطاع الفرار، وهو في الرمق الأخير ويتحسس نفسه ليتأكّد من سلامة نفسه، وبعضهم الآخر طاش عقله، فإذا به يتصرّف تصرف من أصابه مسّ جنوني.

(٣) المنعفر: المتعفّر بالتراب. التواري: الاختفاء. الاحتراش: صيد الضباب. يصف الشاعر شدّة ضربات الممدوح التي تغوص بالمقتول حتى تصل به إلى الأرض، فإذا بالدماء تتلطّخ بالتراب تماماً كما يتوارى الضبّ في جحره مخافة اصطياده.

(٤) العجاية: عصَبة في يد الجواد فوق حافره. الارتهاش: شدّة الحكّ حتى يدمى عصب الذراع. يصف الشاعر هروب الخيول من المعركة، فإذا بها تخبط كيفما اتّفق لها، لذا فهي تغوص بدماء القتلى فيُلطّخ بعض أيديها، وكأنها بالارتهاش فدميت من جرّاء ذلك، وهي في الأصل سليمة ولم تصب بالارتهاش.

(٥) الرائع: المرعب. المستجاش: طالب النجدة والعون العسكري. يمدح الشاعر أبا =

كَـــأَنَّ تَـــلَـــوِّي الـــنُّـــشَّـــابِ فِـــيـــهِ
تَـلَـوِّي الـخُـوصِ فـي سَـعَـفِ الـعِـشَـاشِ[١]
وَنَـهْـبُ نُـفـوسِ أَهْـلِ الـنَّـهْـبِ أَوْلَـى
بِـأَهْـلِ الـمَـجْـدِ مِـنْ نَـهْـبِ الـقُـمَـاشِ[٢]
تُـشَـارِكُ فـي الـنِّـدَام إذا نَـزَلْـنَـا
بِـطَـانٌ لَا تُـشَـارِكُ فـي الْـجِـحَـاشِ[٣]
وَمِـنْ قَـبْـلِ الـنِّـطَـاحِ وَقَـبْـلِ يَـأْنِـي
تَـبِـيـنُ لَـكَ الـنِّـعَـاجُ مِـنَ الْـكِـبَـاشِ[٤]

= العشائر أنه قد أرعب تلك الخيول فولّت بفرسانها هاربة مخافة مفاجأة جيش عظيم لها، فإذا بفارس وحيد يتولى أمر قتالهم، ولم يطلب نجدة من أمير البلاد سيف الدولة البعيد عن أنطاكية حيث يقوم أبو العشائر بأمر حماية ذلك الثغر.

(١) الخوص: ورق جريد النخيل. السعف: أغصان النخيل، العشاش، الواحدة عشة: النخلة الدقيقة النادرة السعف. يصف الشاعر مهارة ممدوحه في تلقّي سهام الأعداء، فهو يتلافاها بقدرته الفائقة على الحركة، لذا فإنها تتلوّى بين يديه بسهولة عجيبة كتلوي الخوص وأغصان النخيل، فلا تؤثّر فيه لشجاعته وبراعته، فهو لا يهتم بطعن الأعداء ولا بسهامهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. النهب: السلب والإغارة. القماش: يقصد بذلك المتاع. ينعى الشاعر على الجيش المغير، فقد قصد السلب والنهب والفتك بأعراض المسلمين، فإذا به يُنتهب من قبل أبي العشائر الذي انتهب أعمارهم وقتل فرسانهم فولّوا هاربين لا يلوون على شيء سوى النجاة بأنفسهم.

(٣) الندام: المنادمة في شرب الخمرة. البطان، الواحد بطين: المكثر من الأكل. المجاحشة: المدافعة في القتال. يُندّد الشاعر بالقوم إنهم بطان يُكثرون في تناول الطعام ولا يشبعون، وهؤلاء يُنادمون في شرب الخمرة ولا يُحسنون قتالاً، فالمنادمة بالنسبة لهم تتمحور حول القتال، لذا فهم ليسوا أكفاء للأمير وجنده.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. النطاح: يقصد بذلك القتال والصراع. يأتي الشاعر بمثل يفصل بين مجموعتين من البشر، فثمّة من ينطح جيداً من الكباش، وهم الأقوياء. ومنهم من يحمل قروناً للزينة فلا يُناطح بها؛ فذوو القرون المقاتلة هم جند الأمير والفريق الآخر من الروم الذين لا يُحسنون صنعاً.

فَـيَـا بَـحْـرَ الْـبُـحُـورِ وَلَا أُوَرِّي
وَيَـا مَـلِـكَ الـمُـلـوكِ وَلَا أُحـاشِـي (١)
كَـأَنَّـكَ نَـاظِـرٌ فـي كُـلِّ قَـلْـبٍ
فَـمَـا يَـخْـفَـى عَـلَـيْـكَ مَـحَـلُّ غَـاشِ (٢)
أَأَصْـبِـرُ عَـنْـكَ لَـمْ تَـبْـخَـلْ بِـشَـيْءٍ
وَلَـمْ تَـقْـبَـلْ عَـلَـيَّ كَـلَامَ وَاشِ (٣)
وَكَـيْـفَ وَأَنْـتَ فـي الـرُّؤَسَـاءِ عِـنْـدِي
عَـتِـيـقُ الـطَّـيْـرِ مَـا بَـيْـنَ الْـخِـشَـاشِ (٤)
فَـمَـا خَـاشِـيـكَ لِـلـتَّـكْـذِيـبِ رَاجٍ
وَلَا رَاجِـيـكَ لِـلـتَّـخْـيِـيـبِ خَـاشِ (٥)
تُـطَـاعِـنُ كـلُّ خَـيْـلٍ كُـنْـتَ فِـيـهَـا
وَلَـوْ كَـانُـوا الـنَّـبِـيـطَ عَـلَـى الـجِـحَـاشِ (٦)

(١) يروى «يا بدر البدور» بدلاً من «يا ملك الملوك». يمدح الشاعر ممدوحه، إنه بحر فاق سائر البحور بكرمه الفيّاض، وبجراءته فإنه لا يعمد إلى التورية. وهو يخاطبه بأنه ملك سائر الملوك ولا يستثني منهم أحداً، فكلهم خول لأبي العشائر يأتمرون بأمره وينزلون عند رغبته.

(٢) الغاشي: الزائر. يمدح الشاعر أبا العشائر معرفته بالرجال لفطنته وحدّة ذكائه ونفاذ رؤاه، فما من زائر ممن يقصدون المثول بين يديه إلّا ويعرف ما الذي حمله على المجيء إليه، وما هي غايته من ذلك.

(٣) و (٤) الواشي: النمّام. الخِشاش: صغار الطيور على أنواعها. العتيق: الكريم. يصف الشاعر ممدوحه بالكرم، فجوده عمّه خيره، وهو قد أغلق سمعه ولم يقبل من أحد من الوشاة ما يُنقص من قيمة الشاعر، فسبب ذلك أن الممدوح كريم الخلق بين الرؤساء الذين هم بمثابة خشاش الطير الذي لا قيمة له لصغر حجمه، مقابل شخص الممدوح العظيم.

(٥) النحاشي: الخائف. إن خوف الخائف من انتقام الممدوح مبني على التجربة، فظنّه بأن الممدوح قادر على الاقتصاص والانتقام في حال الخيانة، وكذلك فإن من رجا الخير على يدي الممدوح فلن يخيب رجاؤه، فأمانيه لا محالة تتحقّق، لكرم فيض الممدوح.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. ويروى «سِرْت» بدلاً من =

أَرَى الـنَّـاسَ الـظَّـلَامَ وَأَنْـتَ نُـورٌ
وَإِنِّـي مِـنْـهُـمُ لِإِلَـيْـكَ عَـاشِ[١]
بُـلِـيـتُ بِـهِـمْ بَـلَاءَ ٱلْـوَرْدِ يَـلْـقَـى
أُنُـوفـاً هُـنَّ أَوْلَـى بِـالْـخِـشَـاشِ[٢]
عَـلَـيْـكَ إِذَا هُـزِلْـتَ مَـعَ ٱلـلَّـيَـالِـي
وَحَـوْلَـكَ حِـيـنَ تَـسْـمَـنُ فـي هِـرَاشِ[٣]
أَتَـى خَـبَـرُ الأَمِـيـرِ فَـقِـيـلَ كَـرُّوا
فَـقُـلْـتُ نَـعَـمْ وَلَـوْ لَـحِـقُـوا بِـشَـاشِ[٤]

= «كنت». الأنباط: قوم من غير العرب كانوا يتّخذون الزراعة عملاً لهم. ينوّه الشاعر بدور ممدوحه مع جنده، إنّهم يتخذونه قدوتهم، وهم يستمدّون منه شجاعتهم، فيه يقاتلون ومن روحه يستلهمون حماسهم، ويصولون بخيولهم خلفه، حتى لو كان تابعوه من الأنباط الذين لم يعتادوا ركوب الخيول ولم يُقاتلوا لانقلب هؤلاء فرساناً ميامين خلف الأمير.

(١) عشا إلى النار: قصدها ليلاً. يرى الشاعر أن معظم الناس لا خير فيهم لبخلهم، بينما يرى في ممدوحه خيراً كثيراً وكرماً عظيماً، لذا فإنه في حالة لفّ الكون ظلمة؛ ففي مكان غير بعيد نور يشعّ فيه ومنه خير عظيم، إنه الممدوح فيعشو إلى ناره من أراد الدفء والغنى.

(٢) الخشاش: عود يجعل في أنف البعير يُشدّ فيه الزمام. إنه بلاء وامتحان عسير اختبر به الشاعر، فلم يجد في سائر البشر الخير المأمول، لأنهم لم يُقدّروا فيه شاعريته على حقيقتها، لذا فإنهم لا يستحقون أن ينعموا برائحة الورد؛ بل إن أنوفهم تستحقّ الخشاش للجمها تماماً كالإبل التي لا تفرّق بين ما هو جيّد وما هو سيّئ.

(٣) موقف البشر، تبع لمن ملك الثروة دائماً، فإذا افتقر تخلّوْا عنه وابتعدوا، وإذا اغتنى امرؤ وجدتهم يتزاحمون على أبوابه ويتدافعون في سبيل مرضاته لينعموا بنواله، وهم يتصايحون ويتهارشون.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. الشاش: من بلاد ما وراء النهر. يمدح الشاعر الأمير بأنه يُلاحق أعداءه موغلاً في بلادهم، ويردّ الشاعر مؤيّداً ذلك بأن هذا ديدن ممدوحه وهو لا يتوانى يلاحقهم حتى ولو كانوا في إقليم الشاش من أقاليم المسلمين وراء النهر.

يَـقُـودُهُـمُ إِلَـى الـهَـيْـجَـا لَـجُـوجٌ
يُـسِـنُّ قِـتَـالُـهُ وَٱلْـكَـرُّ نَـاشِـي (١)
وَأَسْـرَجْـتُ الْـكُـمَـيْـتَ فَـنَـاقَـلَـتْ بِـي
عَـلَـى إِعْـقَـاقِـهَـا وَعَـلَـى غِـشَـاشِـي (٢)
مِـنَ الـمُـتَـمَـرِّدَاتِ تُـذَبُّ عَـنْـهَـا
بِـرُمْـحِـي كـلُّ طَـائِـرَةِ الـرَّشَـاشِ (٣)
وَلَـوْ عُـقِـرَتْ لَـبَـلَّـغَـنِـي إِلَـيْـهِ
حَـدِيـثٌ عَـنْـهُ يَـحْـمِـلُ كُـلَّ مَـاشِ (٤)
إِذَا ذُكِـرَتْ مَـوَاقِـفُـهُ لِـحَـافٍ
وَشِـيـكَ فَـمَـا يُـنَـكِّـسُ لانْـتِـقَـاشِ (٥)

---

(١) الهيجا: الحرب. اللجوج: الملحاح في الطلب. يُسن: يطول. ومن عادة الممدوح أنه لجوج في طلب أعدائه، ويقود جيشه خلفهم بإلحاح ولو طال الزمان ليُنزل بهم الهزائم، وتلك عادته منذ حداثة سنه، وذلك لا عجب فيه إن اكتهل.

(٢) أسرجت: وضعت السرج للفرس. الكميت: الأحمر والأشقر من الجياد. الإعقاق: انفتاق بطن الفرس للثقل الذي تحمله. الغشاش: العجلة. يذكر الشاعر أنه هيّأ فرسه الكميت، فراحت تُحسن وضع قوائمها حيث يجب أن تضعها، ممَّا يدل على معرفتها باختيار مواقع قوائمها، رغم حملها الثقيل وسرعتها في عدوها.

(٣) المتمرّدات: الممتنعات خبثاً. يصف الشاعر فرسه بأنها لصعوبة انقيادها للغرّ من الفرسان ومن لا يقدر على امتطاء متنها، وقد توقعه أرضاً، وهي تُحسن المصاولة لتتفادى طعنات الرماح من قبل الأعداء، والشاعر بدوره يعمل على حمايتها برمحه لتبقى سالمة، وهو بدوره فارس خبير بترويض الجامح من الجياد، الصعب الانقياد.

(٤) عقرت: مسّها سوء منعها عن السير، فلو هلكت فرسه لوجد الشاعر سبيلاً آخر توصله إلى ممدوحه، إنه ثناء الخلق على الممدوح الذي يتناقل ذكره المعجبون به، وذلك سبب وجيه يُشجّع من فقد وسيلة تُوصله إليه، أن يقصده مشياً على الأقدام، متّخذاً من حسن الثناء تسليته في طريقه.

(٥) شيك: شاكته شوكة في رجله. الانتقاش: العمل على إخراج الشوكة من مكانها. ومن تلك المغالاة، لو أن شجاعاً قد سمع ببطولة ممدوحه سعى لرؤيته حافياً فإذا =

تُـزِيـلُ مَـخَـافَـةَ الـمَـصْـبُـورِ عَـنْـهُ
وَتُـلْـهِـي ذَا ٱلْـفِـيَـاشِ عَـنِ ٱلْـفِـيَـاشِ (١)
وَمَـا وُجِـدَ اشْـتِـيَـاقٌ كَـاشْـتِـيَـاقِـي
وَلَا عُـرِفَ انْـكِـمَـاشٌ كَـانْـكِـمَـاشِـي (٢)
فَـسِـرْتُ إِلَـيْـكَ فـي طَـلَـبِ الـمَـعَـالِـي
وَسَـارَ سِـوَايَ فـي طَـلَـبِ الـمَـعَـاشِ (٣)

= شيك بشوكة لما أحسّ وخزها ولما عمل على التخلّص منها ولما خفض رأسه لسبب تافه كهذا ولاستمرّ في السير إليه حتى يتعرّف إلى طراز فريد.

(١) المصبور: المسجون للقتل. الفياش: المفاخرة. يُخاطب الشاعر الممدوح بأنه سبب إزالة خوف من حكم عليه بالقتل، لأنه علم بشجاعته وصبره في مجالدة أعدائه، فيتأسّى به، فيزول خوفه ويستمدّ منه شجاعته، وكذلك فإن المفاخر بحسن فعاله إذا سمع بما عليه الممدوح من صفات رَفيعة استخذى ولم يعد يلجأ إلى الفخر بما عنده.

(٢) يُعبّر الشاعر عن مدى شوقه لرؤية ممدوحه وحبّه للمثول بين يديه والإشادة بمفاخره، لذا فقد شمّر ساعد الجدّ ليتشرّف برؤيته ويسعد بقربه.

(٣) لذا فقد سار إليه راغباً في توليته أمراً من أمور تعلو به إلى المجد، وهو بلا ريب ولاية مهما تكن وكيفما تكن، بينما غيره ممن يقصد الممدوح من الشعراء يسعَوْن إلى بذل مواهبهم للتكسّب.